المؤسسات تموت وتحيا!

فهد بن عبدالله السماري

تستثير المناسبة الماضي وتعود بالانسان الى الذاكرة للتعرف على ما كان ولربط النتائج بالبدايات. وفي مناسبة غالية هي الاحتفاء باكمال دارة الملك عبدالعزيز ثلاثين عاما برعاية كريمة من صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز -يحفظه الله- وصاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز -يرعاه الله- توقفت عند المحطات الأولى لأتذكر بعض ما عايشته في تلك البدايات.

ففي الأسبوع الأول من تشرفي بالتكليف بالعمل أمينا عاما للدارة اضافة الى عملي الأساس عميدا للبحث العلمي بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية في عام ١٤١٦هـ تحدث إلي أحد الاخوة عن الدارة مشيرا ومؤكدا الى أن أمر تغييرها مستحيل ولا داعي لبذل أي جهد في هذا الجانب معللا ذلك من بين اسباب عديدة بعدم التغيير في السنوات الماضية التي تجاوزت آنذاك مايقارب الأربعة والعشرين عاما. وعند البدء كانت هناك صعوبات كثيرة ولكن دعم معالي الأخ الدكتور خالد العنقري الذي كان رئيسا لمجلس ادارة الدارة آنذاك ذلل الكثير من تلك الصعوبات نتيجة لثقته وانفتاحه ورغبته الشديدة في تطور الدارة.

ومن أبرز المشكلات التي كانت تواجه الدارة الامكانات المادية وعدم وجود تخطيط مناسب وضعف التدريب للكفاءات البشرية وعدم مناسبة التنظيم الاداري وسوء المبنى الذي تشغله ووجود فجوة كبيرة بين الدارة والمتخصصين وضعف الجوانب العلمية. وعندما بدأت أسس التخطيط تظهر بكل وضوح قامت الدولة الرشيدة بتقديم المساندة اللازمة من خلال دعم خادم الحرمين الشريفين وسمو ولي وعهده وسمو النائب الثاني -يحفظهم الله-. وانتقلت الدارة الى مسؤولية رجل يحب التاريخ ويعشقه ويحرص على الدعم والمساندة لما فيه فائدة الوطن وابنائه، ذلك هو صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز -يحفظه الله- الذي لم يقبل بوضع الدارة السيىء آنذاك. ومنذ اعادة تكوين مجلس ادارة الدارة برئاسة سمو الأمير سلمان ومرحلة التغيير الحقيقية آخذة في التشكل والتحرك. وأذكر في هذا المقام أن سمو الأمير سلمان عندما ترأس أول جلسة لمجلس ادارة الدارة سأل الأعضاء عن آرائهم حول تطوير الدارة والنهوض بها ثم طلب سموه أن اقرأ نصوص نظام الدارة. وبعد انتهائي من قراءة النظام قال سموه: هذا مانريد تحقيقه، أي تطبيق النظام والذي ينبغي أن تنهض الدارة من خلاله.

ويعد تولي سمو الأمير سلمان مسؤولية الدارة الزاوية الرئيسة في نهوض الدارة ونجاحاتها. فسموه كان ولايزال يتابع بدقة أنشطة الدارة وبرامجها العلمية ويضخ فيها بتوجيهاته وآرائه الدعم والمساندة الحقيقية التي تجاوزت مسألة اشراف مسؤول على جهاز اداري لتصبح هما من هموم سموه المتعددة يحيطها بعنايته ورعايته الخاصة. لقد وجدت الدارة في سموه بعد الله تعالى المنطلق الحقيقي لتصبح مركزا علميا له مكانته وقيمته.

والزاوية الأخرى التي ساندت الدارة في نهضتها الأخيرة بعد توفيق الله عز وجل تعاون الأساتذة المتخصصين من باحثين وباحثات الذين اسهموا برأيهم ومؤلفاتهم ومقترحاتهم ليضيفوا الجديد الى قديم الدارة. لقد كان ولايزال لتفاعل المتخصصين من أكاديميين وغيرهم من الرجال والنساء أثره

المهم في نشاط الدارة ونجاحاتها. ففي الأمس كانت الدارة تعاني من وجود فجوة كبيرة بينها وبين المتخصصين لأنها كانت تستعين ببعض الباحثين الذي هم على وظائف رسمية مما حجبها عن الدائرة الأشمل في الجامعات والكليات وغيرها. وفي الطور الجديد للدارة ارتأى سمو الأمير سلمان اتصال الدارة بالجميع والاستعانة بهم وتوسيع دائرة المشاركة من خارج الدارة مما دفع بها الى الأمام.

ومن الزوايا المهمة في نهضة الدارة ايضا استعداد غالب موظفيها ومنسوبيها للتطور عندما تتاح لهم الفرص ويجدون أنفسهم في مرآة مؤسستهم. لذا تم تطوير وعي خاص لدى الموظفين واعادة التنظيم الداخلي للأقسام ووضع الموظفين في المكان الذي يناسب قدراتهم وميولهم مع طرح بعض السياسات الخاصة في هذا المجال التي تمكنت من حماية الموظف النشط وتشجيع الموظف الكسول. واليوم يفخر الانسان بأن منسوبي الدارة اصبحوا على مستوى عال من القدرة والكفاءة خلال فترة وجيزة جدا لم تتجاوز السبع سنوات.

والزاوية الأخرى في هذا الأمر هي تعاون المواطنين والمواطنات في كل أنحاء بلادنا الغالية سواء من حيث الاختصاص أو تقديم المعلومات والمواد التاريخية لحفظها وصيانتها. ومن أبرز الأمثلة على ذلك التعاون ما حدث في عام ١٤١٦هـ عندما شرعت الدارة في تنفيذ مشروعها الوطني الأول لمسح المصادر التاريخية الذي شمل كافة أنحاء المملكة العربية السعودية. فعندما بدأت فرق العمل للمسح الميداني في زيارة مناطق المملكة وجدت تعاونا كبيرا وغير مسبوق من خلال تزويد الدارة بالمعلومات وارشاد الفرق الى الأماكن التاريخية وكبار السن الذين يمكن توثيق رواياتهم. والجانب الآخر من التعاون ذلك الكم الكبير من المبادرات والمراجعات والمشاركة في النشر من قبل المتخصصين الذي استجابوا لدعوة الدارة من أجل التفاعل مع برامجها العلمية.

ومن الزوايا المهمة التي أسهمت في تفاعل الدارة ونهوضها مناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة التي كانت بمثابة التحدي الكبير للدارة وتمكنت بفضل الله وهي في بداية نهضتها من أداء واجبها بكل اقتدار ومسؤولية. ومن محاسن المناسبة أنها ضخت في شرايين الدارة نشاطا غير معهود وحملتها مسؤولية كبيرة لتحقيق ماخطط له من برامج علمية وتوثيقية مما أدى الى انجاز الكثير من تلك الأنشطة العلمية والحصول على مكاسب علمية وتحقيق الارتباط مع الباحثين والباحثات وتوثيق العلاقة المباشرة مع عموم الناس والمؤسسات.

هذه جوانب يسيرة وموجز من خبرة وتجربة مؤسسة شهدت دورة الموت ثم الحياة ونجحت في تجاوز أزمتها وسوء أحوالها التي كانت محل حديث الجميع وأصبحت نشطة يافعة وكأنها لم تمر بتلك السنين العجاف. فهذه المؤسسة التي عرفت الموت والحياة تقدم دليلا واضحا على أن أي مؤسسة يمكنها أن تتغير إلى الأفضل بالعمل والتخطيط وحسن الادارة والتفاعل والانفتاح. ولم تكن الامكانات المادية هي السبب المباشر أو الرئيس وانما تنظيم البنية الادارية والتخطيط العلمي السليم والالتزام بالأهداف المحددة والمتابعة الشديدة والاخلاص المتواصل واعطاء كل أمر مهما كان حجمه اعتباره.

واليوم والدارة تدخل عقدها الرابع تشدن مرحلة جديدة من النشاط العلمي الذي سيشمل جانبين مهمين: الأول منهما هو الوصول الى كل بقعة في بلادنا الغالية وتقوم بتوثيق جهود الجميع من رجال ونساء معلنة عن الشمولية والنظرة الوحدوية في التعامل مع تاريخنا الوطني، والجانب الثاني يتمثل في نقل المعلومات التاريخية عبر وسائل التقنية وتسهيل الرجوع اليها للباحثين في كل مكان وهو ما يعرف بمشروع شبكة المعلومات التاريخية الوطنية الالكترونية. ومشروعات المستقبل العلمية سوف تتركز على المشروعات الكبيرة التي يصعب على الأفراد القيام بها من مشروعات وتحقيق ونشر للوثائق والمذكرات والترجمة.

والله من وراء القصد.